إشكاليات القراءة وآليات التأويل في المسار المعرفي اللساني

أ. رندا عبد الباسط جبر

جامعة بنغازي

كلية الآداب والعلوم، الأبيار.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم، اللّهم علِّمنا ما ينفعُنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزِدنا فِقهًا وعِلمًا، إنَّك أنت العليم الحكيم...

لقيت إشكالية القراءة اهتماما متزايدًا على صعيد البحث النظري والتطبيقي، حتى احتلّت في المعرفة الحديثة مكانة عالية، وبظهور الدِّراسات اللسانية الحديثة كان لا بدَّ من إعادة قراءة النصوص القديمة بآليَّات علمية جديدة.

ومصطلح التأويل يعني البحث عن المعنى العميق فيما وراء المعنى الظاهر، وفي عُرف التأويل أنَّ قراءة واحدة لا تكفي لاستجلاء المعنى والكشف عنه، ومن ثَمَّ فهمه؛ بل المعنى بالضرورة هو معنى مزدوج يبحث عن المعنى العميق فيما وراء المعنى الظاهر، والقراءة في حقيقتها نشاط فكري لغوي مُولَّد للتباين، ومنتج للاختلاف.

وبحثنا يتناول المحور الأول: التأويل في المنظور اللغوي واللساني، ويختص بـ [دلالات السياق وتحليل النصوص بين التأويل وقواعد اللغة]، وعنوان بحثنا: [إشكاليات القراءة وآليات التأويل في المسار المعرفي اللساني]، وتهدف هذه الدِّراسة إلى البحث في إشكاليات القراءة، وآليَّات التأويل في المسار المعرفي اللِّساني، والبحث في كيفية قراءة التراث العربي في ظل عصرنا الرَّاهن، ويبدأ البحث بدراسة إشكاليات القراءة وآليَّات التأويل في بعض نصوص من القرآن الكريم، وبيان مدى الاختلاف فيها، ثمَّ

ننتقل لذكر إشكاليات التأويل في بعض أبيات الشعر وشرحها في ظل الدِّراسات اللِّسانية الحديثة، ويُختتم البحث بدراسة بعض النصوص النثرية ، وشرح آليات التأويل فيها، لنصل إلى الخاتمة وبعض التوصيات العلمية.

In the name of Allah, the most beneficent and the most merciful. Problems of reading and interpretation mechanisms in the linguistic cognitive path

Praise be to God, Lord of the Worlds, and blessings and peace be upon our master Muhammad, his family and companions, and may the peace and blessings of God be upon us.

The problem of reading has received increasing attention at the level of theoretical and applied research, until it occupied a high position in modern knowledge, and with the emergence of modern linguistic studies, it was necessary to re-read the old texts with new scientific mechanisms.

The term interpretation means the search for the deep meaning beyond the apparent meaning, and in the tradition of interpretation that one reading is not sufficient to clarify the meaning and reveal it, and then understand it; Rather, meaning necessarily is a double meaning that searches for the deep meaning beyond the apparent meaning, and reading is in fact a linguistic intellectual activity that generates variation and produces difference.

Our research deals with the first axis: interpretation in the linguistic and linguistic perspective, and it is concerned with [context indications and text analysis between interpretation and grammar], and the title of our research: [The problems of reading and the mechanisms of interpretation in the linguistic cognitive path]. The linguistic cognitive path, and the research on how to read the Arab heritage in the light of our current era. The research begins with a study of the problems of reading and the mechanisms of interpretation in some texts of the Holy Qur'an, and the extent of the difference in them, then we move on to mentioning the problems of interpretation in some verses of poetry and their explanation in the light of modern linguistic studies. The research concludes with a study of some prose texts, and an explanation of the mechanisms of interpretation in them, to reach the conclusion and some scientific recommendations.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وخير التسليم، اللّهم علِّمنا ما ينفعُنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزِدنا فِقهًا وعِلمًا، إنَّك أنت العليم الحكيم.

التأويل السفر النّفيس الذي يُمثّل الفكرة الأساسيّة لهذا العلم تمثيلًا متّزنًا معقولًا، ويعرضها عرضًا دقيقًا مُفصّلًا، تتراءى الأضواء على فقراته ومواده؛ لِتقرّبها من الأذهان وتدنيها من الأفكار، والتأويل يُسمّى بذلك لأنّه رجوع إلى المآل، والمرجع من آل الشيء يؤول أولا ومآلا إذا رجع وعاد، ومآل الكلام مفاده وفحواه. النعمان بن حيّون التميمي المغربي (1960م، ص5).

وقد حفلت البيئات المعرفية العربية بمصطلح التأويل، فالتأويل لغة عالمية، تتجاذبه بيئات ثقافيّة مختلفة، شاع في مجال النقد الأدبي الغربي بشكل بارز، وفي مختلف البيئات العربية، فمارسها علماؤها بشكل بارز في الدّراسات القرآنية، من أصول وفقه وتفسير، وعند مختلف الفرق الدّينية، وعُرِف هذا الغرض العلمي عند علماء المفسرين والفقهاء واللغويين، وغيرهم من علماء العربيّة السّابقين، إذ تناوله العلماء بشكل أوسع في المستوى النحوي- حيث كان يعني حمل الظاهر اللغوي على غير الظاهر؛ لتوافق كل التراكيب أصلًا واحدًا وضعت القاعدة على أساسه- والمستوى الصرفي، وقد فرض هذا الموضوع ذاته في مجال الدِّراسات اللِّسانيّة المعاصرة. فوزية دندوقة (2010م، المقدمة).

وإنّ إنكار أهمية التأويل بوصفه أداة معرفيّة في بناء العلم لا يضُر سوى منكره (ذلك أنّه بمثابة إغماض العين عن الشّمس التي تحرق حرارتها جلد المغمض عينيه) نصر حامد أبو زيد (2014م، ص223).

ويهدف هذا البحث إلى دراسة **إشكاليات القراءة وآليات التأويل في المسار المعرفي اللساني** في كتاب الله العزيز، وفي الشعر والنثر؛ للاستفادة والاستزادة من الإعجاز اللغوي المتمثّلة في جزالة الألفاظ ودقّة دلالتها وتراكيبها، وحسن صياغتها وتأويلها وتعدّد معانيها.

أهميّة البحث:

تكمن أهمية البحث في حاجتنا الماسّة إلى المزيد من الدّراسات اللغويّة المستنبطة من النص القرآني ودلالته وتأويلاته وإشكالاته، ودراسة التراث الشعري والنثري وربطه بالدراسات الحديثة المعاصرة.

سبب اختيار الموضوع:

-إنّ إشكاليّات القراءة والتأويل في المسار المعرفي اللساني شغلت العديد من العلماء والمفكّرين، وهذا ما دفعنا إلى هذه الدّراسة والغوص في مفرداتها ودلالتها، ودراسة تأويلاتها، وصياغة ألفاظها.

- تتبّع تأويلات العلماء والباحثين والمفسّرين للخطابات الدّينية والنصوص الشعرية والنثريّة، وتقديم تصوّر معرفي جديد يعمل على تأويل القراءات والنصوص في سِياق الدراسات اللسانية اللغوية الحديثة المعاصرة.

الهدف من البحث:

دراسة إشكاليّات القراءة وآليّات التأويل في المسار المعرفي اللّساني، والدّعوة إلى التأنّي والصبر في فهم مدلولات وتأويلات النصوص القرآنية والتراثيّة الشعريّة والنثريّة؛ للاستفادة والاستزادة من الإعجاز اللغوي المتمثّلة في جزالة الألفاظ ودقّة دلالتها وتراكيبها، وحسن صياغتها وتأويلها وتعدّد معانيها؛ لإرساء قواعد اللغة العربية بكل مقاييسها وفي كل المجالات.

مشكلات البحث:

- هل الدِّراسات السابقة التي قدّمها السّلف كافية للوصول إلى فهم النص القرآني وتأويلاته، والنص الشّعري والنثري ومدلولاته؟

- هل مشكلات القراءة وآليّات التأويل تتكشف من خلال قراءات سابقة فقط وتقف عند التراث المعرفي اللغوي، أو أنّها تتكشف بشكل أكثر وضوحًا من خلال قراءات وتحليلات أخرى، وتتعدّاه إلى المسار المعرفي اللِّساني الحديث؟

الدّراسات السّابقة:

1- التأويل في الدِّراسات العربيّة (إشكالاته وقضاياه)، فوزيّة دندوقة، (رسالة دكتوراة)، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر،2010م.

2- إشكاليّات القراءة وآليّات التأويل، ناصر حامد أبو زيد، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب،2014م.

منهج البحث:

1-توظيف المنهج الوصفي لِما يُساعد على تحديد مدلولات الآيات القرآنيّة والنصوص الشعريّة والنثريّة التراثيّة.

2- تطبيق المنهج التحليلي لِدراسة مكوِّنات بعض الآيات القرآنيّة والنصوص الشِّعريَّة والنثريّة دراسة تحليليّة؛ بُغيةَ الكشف عن آليّات القراءة والتأويل اللغوي في بعض الآيات والنصوص وُصولًا إلى المقصديّة القرآنيّة والتأويلات الشعريّة والنثريّة المتضمّنة في بعضها.

خطّة البحث:

- مقدّمة.
- أهمية البحث.
- سبب اختيار البحث.
- الهدف من البحث.
- مشكلات البحث.
- الدِّراسات السّابقة.
- منهج البحث.
- دراسة إشكاليات القراءة وآليات التأويل في المسار المعرفي اللساني في ثلاثة أبواب:

أولا: إشكاليات القراءة وآليات التأويل في القرآن الكريم.

ثانيا: إشكاليات القراءة وآليات التأويل في الشعر.

ثالثا: إشكاليات القراءة وآليات التأويل في النثر.

- الخاتمة.
- التوصيات.
- المصادر والمراجع.

أولا: إشكاليات القراءة وآليات التأويل في القرآن الكريم

أولًا: من سورة يوسف: قال تعالى على لسان سيدنا يعقوب: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ سورة يوسف، الآية 13.

في هذه الآية يُخاطب سيّدنا يعقوب –عليه السّلام– أولاده إنّه ليحزنني أشدّ الحزن أن تأخذوه معكم، وتذهبوا به بعيدًا عنّي؛ لأنّي لا أصبر على فراقه، وفي هذه الآية فعلان كلاميان أولهما مباشر وهو الإخبار الذي يبدو من البنية السطحيّة، في صيغة الجملة الإخباريّة، وتتمثل في قصّة سيدنا يعقوب – عليه السّلام– مع أولاده عندما أخبرهم بحزنه وألمه إن هم أخذوا معهم يوسف، ومن سياق الآية يتّضح أنّه يتضمّن فعلًا آخر غير مباشر ناتج عن الفعل الأول يتمثّل في الاعتذار بطريقة غير مباشرة في حديث سيدنا يعقوب مع أولاده ورفضه لطلبهم اصطحاب يوسف؛ لعلمه بخبث نواياهم اتجاهه، لكنه لم يرفض اقتراحهم صراحةً، بل عمد إلى أسلوب الاعتذار بأمرين: الأول: حزنه على مفارقة يوسف ولو ساعة من الزمن، والثاني: خوفه أن يأكله الذئب.

وفي الآية نلمح أسلوب التأدب في حوار سيدنا يعقوب–عليه السّلام– مع أولاده؛ لعلمه بخبث نواياهم اتجاه أخيهم يوسف – عليه السلام– وموافقته على أخذه مع عدم اطمئنانه؛ حتّى لا يُؤجج نار الحقد المضرمة في أحشائهم، وهنا تتضح المعاني الدّلالية الصريحة والضمنية في قوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي﴾ في التوكيد بـ(إن، واللام)، وإضمار حزن يعقوب لذهاب يوسف مع إخوته، وعدم قدرته على الصبر على مفارقته وحبه الشديد له، واعتذاره لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ سورة يوسف، الآية 18.

ففي قوله: (وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ) أثر كبير ودور في بناء هيكل القصة، وتحريك أحداثها منذ البداية وحتى النهاية، كونه يعود إلى الشخصية المحورية فيها، وهو يوسف عليه السلام، ويتجسّد ذلك في محاولة إخوة يوسف بعد أن ألقوه في الجب أن يجعلوا من القميص دليلًا ماديًّا لإقناع والدهم تصديقهم

بأن الذئب أكل يوسف عليه السلام، فما كان إلا أن انقلب إلى دليل اتهام ضدهم، وافتضاح جريمتهم، وقوله: (بِدَمٍ كَذِبٍ) فيه توظيف للسِّياق القرآني، وذلك في لفظة (كَذِبٍ) فهي مصدر للمبالغة في الدم الذي لطّخ به أخوة يوسف قميصه؛ للتأكيد على أن الدم الذي على قميصه مفتعل ومكشوف، وظاهر للعيان، وبأنه ليس دمه بل إن علامات الكذب كانت متجليّة وواضحة على القميص لنسيانهم تمزيق القميص، أو أنهم لم يمزقوه جيّدًا، وكأنهم عجزوا عن إيجاد فكرة أخرى لتبرير جريمتهم، وهذا يستدعي تكذيبهم والشك فيهم، ومن أدب النبوّة الرفيع العالي أنه لم يكذّبهم صراحة إنما خاطبهم بلفظ (بل) ردًّا عليهم بأن هذا من إملاء النفوس وتزيينها وتطويعها إياكم لفعل الشر، وتنكير لفظ (أمرًا) يدل على التعظيم والتهويل أي (أمرًا خطيرًا)، أمّا موقف يعقوب–عليه السّلام– فصبر لا شكوى فيه ولا تضجّر، بل الرّضا بقضاء الله، والصبر عليه بتحمّل المكروه بالاحتمال، وكظم النفس عليه مع الروية في دفعه، ومقاومة ما يحدثه من الجزع. أحمد نوفل (1989م، ص 323).

ونخلُص من ذلك أن الأبناء حاولوا تسويغ جريمتهم فصبغوا قميص أخيهم بالدم ليقنعوا أباهم، وليشهد لهم بصدقهم، فقدّموا براهين متعددة على صدقهم، منها البكاء وتلويث القميص بالدم حتى يبرّروا فعلتهم.

فالمرسل عندما يطرح قضية لابدّ أن يقدّم لها التبرير المناسب باعتماده على الأدلّة الماديّة والمعنويّة، ومن أدب الخطاب أن يُقنع المرسِل المرسَل إليه بصحة ما ينقله إليه من أنباء، وقد ظهر ذلك في موقف الأبناء الذين حاولوا الإتيان ببعض البراهين الدّالة على صحّة قولهم، فبرهنة الأبناء لما حدث وعدم الاستخفاف به يُعدّ من باب الخطاب المعتمد على البراهين والأدلّة التي تجعل المخاطَب يقتنع بصحّة ما ينقله إليه المخاطِب.

والصورة الجليّة في تصوير ما سبق أنّ الله–جلّ جلاله– أراد أن يُقرّب يعقوب إليه، فأعطاه ولدًا حتى إذا فرح يعقوب به وصار له قُرّة عين لا يطيق فراقه، سلبه منه فجأة على يد سائر أولاده؛ لتسد المصيبة عليه كل السبل، ولا يجد أمامه إلا أن يفر إلى ربه فرارا، ثم جعل أبناءه هم الجناة ليشعر نحوهم بالمرارة فلا يجد في نفسه رغبة في الشكوى إليهم، بل اعتزالهم وتسليم أمره لله وحده واللجوء إليه. محمود شلبي (1968م، ص 32، 33).

وقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ سورة يوسف، الآية 29.

نلمح فيه خطاب التأدّب الإيجابي، فقد استخدم اسم الإشارة للقريب في حين أنّه نزّه يوسف عن ذلك الأمر وعدّه بعيدًا عن أن يفعله، إنّ دلالة استخدام اسم الإشارة للقريب أن ذا القرب ينوب عن ذي البعد، فاستخدام اسم الإشارة للقريب تأدّبًا من المرسِل لِما للمُرسَل إليه من مكانة كبيرة في نفسه، ولِقرب حدوث الأمر، وهذا ما دلّت عليه البنية السطحيَة، أمّا في البنية العميقة الإشارة إلى بعد هذا الأمر عنه؛ لترفّعه وسمو أخلاقه؛ لذا طلب إليه عدم الاهتمام به وكتمه.

ثانيًا: من سورة الشعراء: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ سورة الشعراء، الآية 87، 88.

قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ينتمي إلى أفعال التوجيه، واللفظ في معناه يحمل قوّتين إنجازيّتين، الأولى: حرفيّة هي النهي مستدل عليها من البنية السّطحيّة لقوله: "لَا تُخْزِنِي" [لا الناهية مع الفعل المضارع]، والنص في سياقه يُصوّر مناجاة داخليّة بين الخليل (المخاطِب)، وربّه (المخاطَب)، وتُفيد بِأنّ هذا الفعل الكلامي يتضمّن قوّة إنجازية غير مباشرة تكمن في الدّعاء، وفي الأصل يجب أن يكون

النّاهي أعلى سلطة ومقاما من المنهي، في حين اختلّ شرط الاستعلاء وتوجّه النّهي من الأدنى إلى الأعلى في هذا السّياق، فعدَلَ عن قوّته الإنجازيّة المباشرة إلى قوّة متضمّنة هي الدّعاء، وهو ما اتّضح في هذا الملفوظ، فالناهي: (إبراهيم عليه السّلام) أقل مقامًا ودرجة من المنهي: (الله جلّ جلاله)، وقد تضمّن النّهي قوة تمثّلت في القول وتجسّدت في الدّعاء.

وخُلاصة القول أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ يحمل تأويلين: الأوّل: تأويل دِلاليّ يطفو على سطح الجملة، وله مؤشرات بنيويّة تتجسّد في النّهي.

والثّاني: تأويل دِلاليّ لا يطفو على سطح الجملة وتُؤشّر له، ولا توجد قرائن بنيويّة تدلّ عليه شكلًا وهو (الدّعاء).

ثالثًا: من سورة العنكبوت: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ سورة العنكبوت، الآية31 – 33.

تُبيّن الآيات أن الظلم قد استمر من قوم سيدنا إبراهيم عليه السلام بكفرهم وألوان معاصيهم، وفي الإخبار عن قرية سيدنا لوط جدال؛ لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم، سأل سيدنا إبراهيم–عليه السلام– الملائكة، كيف يهلكون قوم لوط وفيهم لوط، قال ذلك على سبيل الإشفاق على لوط، وقالت الملائكة: نحن أعلم بمن فيها. أحمد بن محمد النحاس، (1988م، 224/5)، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي (1993م، 146/7).

وقيل إنه أراد بالجدال إظهار الشفقة عليهم، والخوف من أن يمسهم الأذى والضرر، وقُرِئ (لَنُنَجِّيَنَّهُ)

بالتشديد والتخفيف وكذلك (مُنَجُّوكَ). محمود بن عمر الزمخشري (1998م، 547/4).

وقال الصاوي: "وهذا بعد المجادلة التي تقدمت في سورة هود: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ سورة هود، الآية 74، ثم بشروه بإنجاء لوط والمؤمنين. أحمد بن محمد الصاوي المالكي (1902م، 236/3).

وذكر أبو حيان أن لوطا دعا على قومه فاستجاب الله دعاءه، وأرسل ملائكة لإهلاكهم، فمرُّوا على إبراهيم – عليه السلام – أولا فبشروه بغلام، ثم أخبروه بما أرسلوا من أجله فجادلهم بِشأن ابن أخيه لوط. محمد علي الصابوني (200م، 398/2).

وقد وردت هاتان الآيتان في قصة النبي لوط –عليه السلام– مع قومه، مستهلة بملفوظ خبري تقريري مسبوق بالأداة (لمّا) التي تفيد التحيين والتوقيت، ومدلولها وجود لوجود، وهي تختص بالماضي فتقتضي جملتين وجدت الثانية عند وجود الأولى. عبد الله بن يوسف ابن هشام الأنصاري (1991م، 319/1).

أي وجود مضمون الجملة التي تضاف إليها عند وجود الجملة التي تتعلق بها، وهي هنا ظرف مبهم، مضمون الجملة المضاف إليها معلوم للسامع، أي أن مجيء الملائكة بالبشرى أمر معلوم للمتلقي؛ حيث سبق وأن ذكر في نفس السورة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ ملفوظ تقريري إثباتي مؤكد بـ"إن" قوته الإنجازية الحرفية الإخبار، وقد عزّز المتكلم خطابه هنا بالأداة (إن، واسم الفاعل) (مُهْلِكُو)؛ لأن المتلقي إبراهيم لم يكن على علم بالخبر من قبل، وقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ ملفوظ تقريري إثباتي مؤكد، والإثبات هنا أشير له تركيبا بالأداة "إن" وأُتِيَ بها لتقوية الثابت في محتوى القول، وتكمن قوته الغرضية في الإخبار، ويحمل معنى متضمنا في القول وهو التعجب، فإبراهيم –عليه السلام– تحركت في نفسه مشاعر الرحمة اتجاه ابن أخيه بعد أن سمع بخبر هلاك قريته،

وقد عزّزَ ردّه بتأكيده لخطابه وتقديم ظرف المكان (فيها) مؤكّدًا خوفه ولهفته، وهنا تبرز سماحة نفسه، عندما نسي نفسه وما بشروه به من الولد وجادلهم في لوط وقومه.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ فالملفوظ هنا إخباري تقريري، قوته الإنجازية الإخبار، مدلول عليها بصيغة الجملة اللفظية، ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ فعل تأثيري، ينعكس على نفسية المتلقي زيادة في طمئنته، وإزالة كل شك يساوره اتجاه لوط –عليه السلام–، ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ استثناء زوج لوط من النجاة والرحمة، ولم يجادلهم إبراهيم فيها؛ لأنه على علم بأنها لم تؤمن بزوجها.

ثانيا: إشكاليات القراءة وآليات التأويل في الشعر

إنّ المادة اللغوية التي سيتم تحليلها في هذه الدّراسة هي أقدم النصوص اللغويّة التي وصلت إلينا عن العربيّة، متمثلة في أشعار المرحلة الأولى من العصر الجاهلي، **وسنبدأ أوّلًا ببعض أبيات من معلّقة امرئ القيس:**

1–قِفَا نَبْكِ مِن ذِكرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

امرؤ القيس (2004م، ص21).

يقول: قفا وأعيناني على البكاء عند تذكري لحبيب فارقته، ومنزل خرجت منه، في هذا البيت استخدم امرؤ القيس تراكيب فيها أدوات العطف للربط بين الجمل، كالواو والفاء، وتتكون جملة (نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ) من مسند(نبكِ)، ومسند إليه (تقديره: نحن)، وفضلة (من ذكرى حبيب ومنزل)، والعناصر الرئيسة للجملة متمثلة في الفعل(نبكِ)، والفاعل المستتر(نحن)، والعلاقات التركيبية لمكونات الجملة تتمثل في علاقة الفاعلية بين الفعل (نبكِ) والضمير المستتر(نحن)، وهي العلاقة الإسناديّة في الجملة، وكذلك علاقة تعلّق الجار والمجرور نحو: (من منزل) بالفعل (نبك)، حيث بيّن سبب البكاء،

وأيضا علاقة إضافة (ذكرى) لـ(حبيب)، وعلاقة عطف (منزل) على (ذكرى)، وبهذا يمكننا صياغة عدد لا نهائي من الجمل الصحيحة. تشومسكي (1985م، ص208).

2–فَتُوضِحَ فَالْمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا لما نسجَتْها من جَنوبٍ وشَمْأَلِ

(المصدر السابق، ص22).

أي لم ينمحِ ولم يذهب أثرها؛ لأنّهُ إذا غطّتها إحدى الرّيحين بالتراب كشفت الأخرى التّراب عنها.

حرف الفاء في (فتوضح) ربط بين عدة جمل اختصرها امرؤ القيس في تركيب واحد وهي: (بسقطِ اللّوى بين الدّخول)، (بسقط اللوى بين حومل)، (بسقط اللوى بين توضح)، (بسقط اللوى بين المقرأة) عن طريق القاعدة التحويلية.

3–تَرَى بَعَرَ الآرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا وقَيْعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

(المصدر السّابق، الصفحة نفسها).

يقول: انظر بعينيك ترَ هذه الديار التي كانت مأهولة بأهلها مأنوسة بهم أرضها خصبة، كيف غادرها أهلها، وأقفرت أرضها، وسكن رملها الظباء.

وفي هذا البيت: [ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها] متحولة عن الجملتين: ترى بعر الآرام في عرصاتها / ترى بعر الآرام في قيعانها، فالعطف هو قاعدة تقلص واختصار، يتم فيها اختصار أكثر من تركيب لغوي إلى تركيب واحد.

ومن التحويلات الجوازية: قواعد المبني للمجهول، والاستفهام، والنفي، والنهي، والتي تحتوي في مجملها على قواعد إضافة الأداة، وقواعد الإحلال وغيرها، أما القواعد التحويلية الوجوبية فنراها اندمجت مع الجوازية في تحليلات الأبيات السابقة، كالقواعد التحويلية للزمن المتمثلة في إبدال صيغة زمن

التركيب من زمن لآخر، كالإبدال من صيغة الماضي إلى صيغة الأمر في تراكيب الأمر في الفعل (قِفَا) للدلالة على فعل الأمر، وأيضا كقواعد الفصل بين المفردات كما في الأبيات السّابقة، وقواعد الحذف الإجباري نحو (فحومل)، وبذلك فإن الجمل التركيبية يتم إعادة كتابتها بواسطة قواعد إعادة الكتابة وتفريعها إلى مستويات لغوية صغرى عن طريق القواعد التركيبية التفريعية والمعجميّة، وينتج عنها الكلام المورفيمي الذي يتضمن المورفيمات.

4- وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُم يَقُولُونَ لَا تَهْلِك أَسًى وَتَجَمَّلِ

(امرؤ القيس، ص24).

إنّ وقوف الصحب بالمكان عمليّة مشاركة للشاعر تتفق في الوقوف وتختلف في القصد من الوقوف، فإذا كان الشاعر وقف ليبكي فالصحب وقفوا ليزجروا الشاعر عن هذا الفعل؛ لأنّ الصحب يُمثّلون قوّة مقاومة لفعل البكاء، ويتمتّعون بسلطة خاصة تجعلهم يتكلّمون، والسّلطة هي سلطة الكلام والقدرة على التكلّم، ويقدم الموقف التكلمي (الشاعر والصّحب) مجموعة من المعطيات، وهي أنّ الشّاعر يُخاطب ذاته ويدعوها للوقوف والبكاء، أمّا الصحب فهم جماعة تُخاطب الشّاعر للكف عن البكاء.

5- فَقَالَتْ: سَبَاكَ اللهُ إِنَّكَ فَاضِحِي أَلَسْتَ تَرَى السُّمّارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالِي

(المصدر السابق، ص137).

فجملة (ألست ترى السمار والناس أحوالي) جملة سطحية تحويلية، والاستفهام فيها تصديقي تكون الإجابة بـ(نعم أو لا)، والبنية العميقة لهذه الجملة هي (ترى أنت السمار)، وهذا التركيب تتحول بنيته السّطحية لأكثر من تركيب:

أولا: التحويل الجذري الذي بواسطته تم تحويل الجملة الفعلية إلى جملة اسمية (أنت ترى السّمّار).

ثانيا: التحويل بالزيادة، كزيادة أداة النفي (ليس)؛ لأنها وسائر الأفعال الناقصة أدوات لا أفعال بحسب المنهج التوليدي، والزيادة الثانية (همزة الاستفهام) نحو (ألست ترى السمار) فزيد العطف بركنيه (حرف العطف والاسم المعطوف = الواو، الناس)، ثم زيد الحال (أحوالي)، وقد أدخل تشومسكي أداة التعريف من ضمن التحويل بالزيادة فأصبح كل اسم محلّى بـ(ال) داخل ضمن هذه القاعدة.

ثالثا: التحويل بالحذف: ويكون بحذف فاعل (ترى) حذفا جوازيا دل عليه السياق، فجاء متقدما متصلا بـ(ليس).

6- وقول المُهَلْهِل بن ربيعة:

وصَارَ اللَّيلُ مشتملًا عَلينا كأنّ اللَّيلَ ليسَ لَهُ نَهَارُ

المهلهل بن ربيعة (1995م، 28/3).

قوله: (صار الليل مشتملا علينا): جملة سطحيّة مُحوَّلة عن البنية العميقة (الليل مشتمل)، وقد تحوّلت البنية العميقة إلى البنية السّطحيّة بواسطة التحويل بالزيادة، وفيه زاد الشاعر فعل التحويل (صار)؛ ليدل على التحوّل الذي طرأ على طول الليل، بعد أن كان ليلًا عاديًّا، له وقته المعلوم، وقد يكون مراد الشاعر أنّ الهموم دهته ومن معه، حتّى صاروا في ليلٍ طويلٍ لا انقضاء له، ويؤكد ذلك قوله: (كأن الليل ليس له نهار)، ثمَّ زاد الشاعر الجار والمجرور (علينا) لتخصيص معنى الاشتمال في كلامه.

قال عبيد بن الأبرص:

7- يا أَيُّها السّائلُ عن مَجْدِنَا إِنَّكَ عن مَسْعَاتِنَا جَاهِلُ

عبيد بن الأبرص (1994م، ص93).

قوله: (يا أيُّها السَّائِلُ) جملة سطحيَّة محوَّلة عن (يا سائل)، وقد تحوَّل التركيب بالتمدد في أداة النِّداء في قوله (يا سائل) إلى (يا أيُّها السَّائل)، وأضيفت (ها) لامتناع دخول حرف النداء على الاسم المُعرَّف بـ(ال)، وزيادة في التوكيد، وكثرة المؤكّدات في البيت تدل على أنّ المخاطب منكر لمجد قبيلة بني أسد؛ لذلك عمد الشاعر إلى أسلوب التوكيد في البيت.

8- وقال أيضًا:

بَل لا مَحالَةَ مِنْ لِقَاءِ فَوَارِسٍ كَرَمٍ متى يُدْعَوْا لِرَوْعٍ يَرْكَبُوا

(المصدر السابق، ص30).

قوله: (متى يُدْعَوْا لِرَوْعٍ يركبوا) جملة سطحيّة مُحوّلة بالتقديم عن جملة (يركبوا الخيل متى يُدعَوْا)، وقوله(يُدْعَوْا لروعٍ) أزالت إبهام (متى) وبيّنت فيها الزمن، فعندما تقدّم الظرف(متى) تقدّم معهُ ما يوضّحه، فهُما كوحدة لغويَّة واحدة، وصار الكلام (متى يُدْعَوْا لِرَوْعٍ يركبوا)، والجملة العميقة هي: (يركبوا الخيل) وقد تحوَّلت البنية العميقة إلى البنية السّطحيّة بتحويل الزيادة والتقديم والتأخير والحذف، والزيادة تكون بزيادة الظرف الدّال على زمن حدوث الركوب (متى يُدْعَوْا)، ومقصد الكلام:(يركبوا الخيل متى يُدْعَوْا)، وزيادة الجار والمجرور في (الرَّوْع)، وتقييد الفعل بظرف القتال لإبراز قوّة وشجاعة قومه، والتقديم والتأخير يكون بتقديم الظرف(متى) وما يُزيل إبهامه (متى يدعَوْا) إلى بداية الجملة أي (متى يُدْعَوْا يَركبوا الخيل)، وحذف الشاعر المفعول به (الخيل)؛ لدلالة لفظ (فوارس) عليه؛ لأنّ الفارس لا يكون فارسًا إلَّا إن امتطى الخيل.

ومن هنا يتضح أنّ إشكاليّات القراءة والتأويل لا تقف عند حدود اكتشاف الدّلالات في سياقها التراثي الشعري بل تتعداه للوصول إلى المغزى المعاصر في شتى أنواع الدِّراسات اللغوية.

ثالثا: إشكاليات القراءة وآليات التأويل في النثر

هذا النص من كتاب سيبويه يُبيِّن أهميّة التأويل في كتابه، وأشار فيه سيبويه إلى إشكاليات القراءة والتأويل في باب: "الاستقامة من الكلام والإحالة" سيبويه (1988م، 25/1).

قال: "فمنه مستقيم حسَن، ومُحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو مُحال كذب، فأمّا المستقيم الحسن فقولك: آتيك أمس، وسآتيك غدا، وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره، فتقول: أتيتك غدا وسآتيك أمس، وأما المستقيم الكذب، فقولك: حملت الجبلَ، وشربتُ ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك قد زيدًا رأيتُ، وكي زيدٌ يأتيك، وأشباه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس". (المصدر السابق، 25/1، 26).

وقد يُطبَّق نص سيبويه هذا في الدِّراسات اللِّسانيّة الحديثة على ما أسماه (تشومسكي) بالكفاية اللغوية وأصوليّة الجملة. ميشال زكريا (1986م، ص18).

ويؤكد سيبويه في هذا النص أن لكل كلام صحة أو فسادا في التركيب أو في المعنى (الدلالة) أو في كليهما، فلفظ (الاستقامة) يعني وضع الألفاظ موضعها من الجملة وفي ترتيبها الصحيح، ولفظ (القبيح) عنى به وضع الألفاظ في غير موضعها من الجملة، أما لفظ (الكذب) فعنى به فساد المعنى، ولفظ (المحال) عنى به فساد التركيب، ونبين فئات الكلام كما صنفها سيبويه:

الاستقامة من الكلام	الإحالة من الكلام
مستقيم حسن	محال
مستقيم كذب	محال كذب
مستقيم قبيح	

وما ذكرناه سابقا خال من ذكر (مُحَال حسن أو محال قبيح)؛ وذلك لأن الكلام الذي يُستحال تركيبه في اللغة ليس بمقدورنا أن نصفه بصفة الحسن أو القبيح، في حين أن بإمكان الكلام أن يكون محالا وكذبا في الوقت نفسه.

أما في (مستقيم ومحال) فمعيار الاستقامة والاستحالة فيها لا يعود إلى جوانب تتعلق بالمعنى (الدّلالة)، إنّما يقومان على أسس تركيبية تتعلق بنحو الجملة.

ونلاحظ مما سبق أن سيبويه عبر عن مصطلح (مستقيم حسن) بـ(حسن، أحسن، أجود، أحسن وأكثر، حسن عربي أحسن وهو الوجه)، ومصطلح (مستقيم قبيح) عبر عنه بـ (قبيح، أقبح، فرارا من القبح)، وهذا يدل على مدى الترادف الواضح في البدايات الأولى للدرس اللغوي في الاستقرار على مصطلح لغوي يعبر عن الظاهرة اللغوية.

وكلام سيبويه كلّه عربي، ولكن بعضه مخالف للقواعد في التركيب، وبعضه مخالف للمعاني، فجملة (حملتُ الجبل، وشربت ماء البحر، وسوف أشرب ماء البحر أمسِ)، صحيحة من حيث التركيب، ولكنها غير صحيحة من حيث المعنى، ففي الجملتين الأولى والثانية: (فعل، فاعل، مفعول به)، وهو تركيب صحيح، وفي الثالثة: (حرف استقبال، فعل، فاعل مستتر، مفعول به، ظرف)، وهو تركيب صحيح أيضًا، ولكن المعاني خرجت بالجمل الثلاث عن الصحّة.

وأمّا قوله (قد زيدًا رأيتُ، وكي زيدٌ يأتيك، جملتان خرجتا عن القاعدة؛ لأنّ حرف التحقيق لا يتبعه اسم في التركيب العربي: (قد، اسم [غير ممكن])، أمّا (قد، فعل ماضٍ [ممكن])، كذلك حرف التعليل (كي) لا يتبعه اسم: (كي، اسم (غير ممكن)، أمّا (كي، فعل مضارع [ممكن]).

فسيبويه ربط بين التركيب المعنوي للجملة والتركيب النحوي ولا يفصل بينهما، فلا يجوز أن تكون

الجملة صحيحة نحويًّا، وفيها خطأ نحوي، ولا يجوز العكس أيضًا، وهذا ينطبق على ما ذكره تشومسكي. تشومسكي (1985م، ص138-158).

وبعد دراستنا لهذا النص فإنّ ما دعاني لاختياره من كتاب سيبويه تحديدًا؛ أنه الكتاب الأول الذي وضع أسس التأويل وقواعده للنحاة الذين جاءوا بعده.

ومِمَّا سبق نخلُص إلى أهميّة التأويل في الدّراسات اللغويّة، وهذه الدّراسة محاولة للكشف عن ربط التراث اللغوي العربي بالنظرية الألسنية الحديثة (النظرية التوليدية التحويلية)، وتبين أبرز نقاط التلاقي بين الطرفين قديما وحديثا من منطلق أن الألسنية الحديثة ليست بعيدة عن الفكر اللغوي العربي.

الخاتمة

1- إنّ البحث في هذا الموضوع **[إشكاليات القراءة وآليات التأويل في المسار المعرفي اللساني]** في حاجة إلى مزيد من الدّرس والإثراء؛ فتناول التأويل في آيات القرآن الكريم، وأبيات الشعر ونصوص النثر، وربطه بالمناهج الحديثة، يستحق مزيدًا من البحث والدّراسة.

2- هذه الدِّراسة يجمعها موضوع فكري واحد هو [إشكاليات القراءة]، بشكل عام، وقراءة التراث بشكل خاص، وهذه الدِّراسة تُعدُّ بمثابة تجارب جزئية متنوعة تهدف إلى اكتشاف الرَّوابط الخفيَّة بين مجالات الفكر التراثي وصولًا إلى وحدته.

3- القرآن الكريم وتفسيره وتأويله شكَّل المصدر الأوّل من مصادر المعرفة، كذلك فإنّ نزوله بلغة العرب ولَّد هذا الاهتمام وساهم في تطوّر هذه اللغة وأبحاثها.

4- التأويل لغة عالمية، تتجاذبه بيئات ثقافية مختلفة، شاع بشكل بارز في مجال النقد الأدبي الغربي، وفي مختلف البيئات العربية في الدّراسات القرآنية والشعريّة والنثريّة، وفي جميع المستويات.

5- مفهوم التأويل أصبح من أوسع المفاهيم وأكثرها استعمالا في العلوم الإنسانيّة، وهو مصطلح غاية في التعقيد؛ ذلك أنّ استعمالاته تختلف من قرن إلى آخر، ومن بيئة ثقافيّة إلى أخرى.

6- التأويل في التاريخ القديم كان مرتبطا بالنصوص الدّينية، لكنّه مع حلول القرن الثامن عشر الميلادي تحوّل إلى علم كُلّي، يهتم إلى جانب تأويل القرآن بالمسار المعرفي اللغوي في الدّرس العربي في مختلف الكتب النحوية والصرفيّة واللغويّة والبلاغيّة ...وغيرها.

7- من أهم النتائج التي توصّلنا إليها من خلال دراستنا، والتي يُمكن أن نلمسها في هذه الدِّراسة أنَّ التراث منظومة فكريَّة واحدة، تتجلَّى في أنماط وأنساق جزئيّة متغايرة في كل مجال معرفي.

8- لم يكن سيبويه وهو يضع البناء النظري والقوانين الكليّة للغة العربية معزولًا عن إنجازات وآراء وتأويل الفقهاء والقرَّاء والمحدثين والمتكلّمين.

9- إشكاليَّات القراءة والتأويل لا تقف عند حدود اكتشاف الدّلالات في سياقها التاريخي الثقافي الفكري، بل تتعدى ذلك إلى محاولة الوصول إلى المغزى المعاصر للنص التراثي، وفهم آليَّات التأويل، وربطه بالدراسات الحديثة.

10- هذه الدِّراسة تُمثل القراءة التأويلية التي تهدف إلى تحديد آليَّات التأويل في المسار المعرفي دون إهدار لبعد الدِّلالة في النص المقروء.

11- إنّ مشكلات القراءة وآليات التأويل لا تنكشف بدراسة مُحدّدة، بل تنكشف بشكل أكثر وُضوحًا من خلال تحليل قراءات أخرى؛ لإضفائها إضاءات للمعنى، وتعميق لفهم آليَّات التأويل كما ينبغي أنْ تكون.

12- إنّ إنكار أهمية التأويل بوصفه أداة معرفيّة في بناء العلم لا يضُر سوى منكره.

13- القراءة فعل مستمرّ لا يتوقّف، يبدأ من الحاضر الرَّاهن وينطلق إلى الماضي والتّراث، ثمّ يرتد إلى الحاضر مرة أخرى في حركة لا تهدأ وتبقى مستمرَّة.

التوصيات العلمية:

نوصي بمزيد من الدّراسات اللغويّة المستنبطة من النص القرآني ودلالته، ودراسة التراث الشعري والنثري وربطه بالدراسات الحديثة المعاصرة، ودراسة **إشكاليات القراءة وآليات التأويل في المسار المعرفي اللساني.**

المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم.

2- الأبرص، عبيد. (1994م). ديوانه. الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتاب العربي.

3-امرؤ القيس، حندج. (2004م).ديوانه. الطبعة الثانية، بيروت: دار المعرفة.

4- الأندلسي، محمد. (1993م). البحر المحيط. الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية.

5-الأنصاري، عبد الله. (1991م). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. بيروت: المكتبة العصرية.

6- التميمي المغربي، النعمان. (1960م). أساس التأويل. بيروت: منشورات دار الثقافة.

7- دندوقة، فوزية. (2010م). التأويل في الدراسات العربية إشكالاته وقضاياه. (رسالة دكتوراة). جامعة محمد خيضر. بسكرة. الجزائر.

8- ربيعة، المهلهل. (1995م). ديوانه. الطبعة الأولى، بيروت: دار الجيل.

9- زكريا، ميشال. (1986م). الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة. الطبعة الثانية، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

10- الزمخشري، محمود. (1998م). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة العبيكان.

11- أبو زيد، نصر. (2014م). إشكاليّات القراءة وآليّات التأويل. الطبعة الأولى، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

12- شلبي، محمود. (1968م). حياة يوسف. بيروت: دار الجيل.

10-الصابوني، محمد. (2002م). صفوة التفاسير. الطبعة الأولى، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

12- الصاوي، أحمد. (1902م). حاشية الصاوي على تفسير الجلالين. مصر: المطبعة العامرة الشرفية.

13- قنبر، عمر. (1988م).الكتاب. الطبعة الثالثة، القاهرة: مكتبة الخانجي.

14- ليونز، جونز. (1985م). نظرية تشومسكي اللغوية. الطبعة الأولى، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

15-النحاس، أحمد. (1988م). معاني القرآن. المملكة العربية السعودية: مركز إحياء التراث الإسلامي.

16- نوفل، أحمد. (1989م). سورة يوسف دراسة تحليلية. الطبعة الأولى، عمّان: دار الفرقان للنشر والتوزيع.